من فصول كتاب « الزيارات » للشابشتي

٢ ـ دير مـــديان

للأستاذ صلاح الدين المنجد

... ونرجع إلى ذكر إسحاق بن إبراهيم ، ونورد طرفاً من أخباره في حزمه وضبطه بقدر ما يليق بالكتاب

إسحق هذا هو ابن طاهر بن الحسين ، ويكنى أبا الحسين ، وكان المأمون اصطنعه وولاّه خلافة عبد الله بن طاهر بحضرته لما أخرج عبد الله إلى خراسان . وكان أشد الناس تقدّماً عنده واختصاصاً به . فذكر عبد الله بن خرداذبة أنه حضر مجلس المأمون يوماً وقد عرض عليه أحمد بن أبي خالد رقاعاً فيها رقعة قوم متظلمين من إسحاق بن ابراهيم ؛ فلما قرأها المأمون أخذ القلم وكتبَ على ظهرها : « ما في هؤلاء[1] الأوباش[2] إلاّ كل طاعن واش . إسحاق غرسُ يدي ، ومَنْ غرستُه أنجب ولم يخلف[3] ، لا أعدى عليه أحداً[4] . » ثم كتب إلى إسحاق رقعة فيها : « من مؤدب مشفق إلى حصيف متأدب . يا بني ! من عزّ تواضع ، ومن قدر عفا ، ومن رامى أنصف[5] ، ومن راقب حذر ، وعاقبة الدالة غير محمودة ، والمؤمن كيّس فَطِن والسلام . »

وذكروا أن بعض ولد الرشيد ـ وكان له موضع من النسب ومكان في المعرفة والأدب ـ مرض ببغداد مرضاً طال ، ولم يقدر على الركوب ، واشتهى التفرج والتنزه في الماء ، فأراد أن يبني زلاّلاً[6] يجلس فيه فمنعه إسحاق وقال :

« هذا شيء لا نحب أن يُعمل مثله إلا بأمر أمير المؤمنين » فكتب إلى المعتصم يستأذنه في ذلك ، فخرج الأمر إلى إسحاق بإطلاقه له . فكتب إسحاق : « ورد عليّ كتاب من أمير المؤمنين بإطلاق بناء زلاّل لم يحدّ لي طوله ولا عرضه ، فوقفت أمره إلى أن أستطلع الرأي في ذلك ... » فكتب إليه يحمده على احتياطه ويحد له ذرع الزلاّل

* * *

قال أبو البرق الشاعر : كان إسحاق يجري عليّ أرزاقاً . فأنشدته يوماً ؛ فسألني عن عيالي وما أحتاج إليه لهم . ثم قال لي : يحتاج عيالك في كل شهر من الدقيق كذا ، ومن كذا كذا ... فما زال يخبرني بشيء من أمر منزلي كثير جهلته وعلمه هو

* * *

وذكر أبو حشيشة الطنبوري قال : كنت يوماً في منزلي إذ طَرَق البابَ صاحبُ بريد وقال : أجِبْ . فلما قال أجِبْ علمتُ أنه أمرٌ حال . فلبست ثيابي ومضيتُ معه حتى دخلنا دار إسحاق بن ابراهيم . فدُلِلَ بي إلى ممر طويل فيه حُجُر متقابلة ، تفوح من جميعها روائحُ الطعام . فأُدخلتُ حجرة منها ، وقُدّم إليّ طعام في نهاية النظافة وطيب الرائحة ، فأكلتُ . وجاؤوني

(١) في الأصل : هولا وهو تحريف

(٢) الأوباش من الناس الأخلاط مثل الأوشاب وهو جمع مقلوب من البوش

(١) من الاخلاف ، يقال أخلف ما وعده ، هو أن يقول شيئاً ولا يفعله في المستقبل

(٢) أي لا أجعل أحداً يسمو عليه

(٣) كذا في الأصل ولعلها « رمى » ولكل وجه

(٤) الزلال : ضرب من السفن

على الموت ... فمن الرحمة بنفسه أن يعيش على عبير الذكرى ...

لقد أدركت بريطانيا العظمى خطر الموسيقى وخطر الغناء والدور البريء في إيقاظ عواطف الجنود ، فأنشأت في مصر أماكن خاصة (كفندق المتروبوليتان) ، تعرض فيها عليهم شتى أنواع الأغاني والموسيقى والدور الطاهر ...

فعلتْ هذا لأن الخير فيه عظيم : فهي تعرض عليهم الأنشودة لتلهب فيهم الذكرى والحنين ... فيشتد الوفاء ، وترتبط أرواحهم بأرواح الأحبة في الوطن ...

ومن ثم يكون الشوق إلى العودة ظافرين . وليس الأمر ببعيد ، وها هي ذي صفحات التاريخ العربي المجيد ، ترينا كيف كان العرب في أشد المواقف حرجاً ، وفي ظلال السيوف والرماح يتغنون بذكرى الأحبة . وكفى أن نتذكر قول عنترة في معلقته :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل ... مني وبيض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل السيوف لأنها ... لمعت كبارق ثغرك المتبسم

« المنصورة »

محمود البشبيشي

بثلاثة أرطال فشربت ، وأحضروني صندوقاً فيه طنابير ، فاخترت طنبوراً منها وأصلحته على الطريقة ، وأخرجتُ من الموضع إلى حجرة لم أر أحسن منها ، وإذا في مجلسها رجلان على أحدهما قباء ملجم وقلنسوة سمّورية[1] ، وعلى الآخر ثيابُ خزّ وستارةٌ مضروبة . فسلّمتُ وأمرتُ بالجلوس ، فجلستُ . فقال لي صاحب السمّورية : غنّ ، فتغنيتُ :

ما أراني إلا سأهجرُ مَنْ ليس يراني أقوى على الهجران
ملّني واتقاً بحُسْن وفائي ما أضر الوفا على الإنسان[2]

فغنيته فشرب رطلاً ، ونقر الستارة وقال : غنّوه . فغنى الصوتُ أحسن غناء في الدنيا ، وخيّلتُ أن البيت يرقص ! . فقال لي : كيف ترى ؟ قلت : والله يا مولاي بغّضوا إليّ هذا الصوت وسمّجوه في عيني . فضحك واستعادنيه ثلاث دفعات ، فشرب في كل دفعة منها رطلاً . ثم قال : أتعرفني ؟ قلت : لا ، قال : أنا إسحاق بن ابراهيم ، وهذا محمد بن راشد الخناق[3] ووالله لئن ظهر حديث هذا المجلس منك لأضربنك ثلاث مئة سوط . قم ، إذا شئت . فقمت من بين يديه ، فلحقني الغلام بصرة فيها ثلاث مئة دينار فاجتهدت أن يأخذ منها شيئاً ، فأبى .

وذكر عمرو بن بانة قال : وجه إلى إسحاق بن ابراهيم في آخر النهار . . . فصرت إلى داره ، وأدخلت عليه وهو جالس في طارمة[4] ملبسة بالخز على دجلة ، وقد انبسط القمر على الروشن[5] وعلى دجلة ، وهو من أحسن منظر رأيت قط ، والمغنون جميعاً بين يديه . و (بذل) جالسة وراء مقطع في الطارمة . فلم يزل جالساً بموضعه ونحن بين يديه إلى أن نودي بالفجر ، فقام وقمنا . وقال لنا الغلمان : انصرفوا ، فنزلنا إلى الشط ودعونا بسميرية[6] فجلسنا فيها جميعاً ، وقلت لهم : إن منزلي أقرب من منازلكم فاجعلوا مقامكم اليوم عندي فضلوا و ...[1] في المنزل ؟ فطلبت فيه شيئاً يؤكل فلم أجد : فأمرت بإحضار المائدة ، فأحضرت فارغة ، وطرحت في وسطها مئة درهم صحاحاً وقلت : يوجه كل واحد فيشتري له ما يريد . فما كان بأسرع من أن امتلأت بكل شيء . . . فأكلنا وشربنا ، ومرّ لنا يوم طيّب ، وتفرقنا في آخر النهار ، وفي قلوبنا غصص مما فعله بنا إسحاق ، وما فاتنا من تلك الليلة الحسنة في ذلك الموضع الحسن . فمضيت بعد ذلك إلى « بذل » وسألتها عن السبب فيما فعله . فقالت : قد سألته عن ذلك فقال : ويحكِ أنا أشتهي الشرب في مثل هذه الليلة منذ سنة وأواقع[2] نفسي به . فلما حصل لي جميع ما أريده واشتهيته أردت أن أري نفسي سلطاني عليها ، وقهري لها ومنعها مما تحبه لئلا[3] تقودني إلى ما تريد ففعلتُ ما رأيتِ

وكان مع ذلك حسن المروءة كريم النفس فذكر أبو حشيشة الطنبوري قال : دعاني في بعض الأيام فصرت إليه وجلست أغنيه ، وعليه دراعة خز خضراء لم أر أحسن منها قط . فجعلت أنظر إليها ، وفطن لنظري[4] فدعا بالخازن وقال : كانوا جاؤونا منذ أيام بعشرة أثواب خز خضر ، هذا أحدها ، فجئني ببقيتها . فأحضر تسعة أثواب يتجاوز حسنها كل وصف فأعطانيها ، فبعت من رذالها الثوب بمئة دينار

* * *

وكان المأمون يصير إليه في داره ، فيقيم عنده الأيام هو وغلمانه وحشمه أنساً به وثقة بمكانه[5]

(دمشق) صبحي السيد الحجر

---

(١) لعلها نسبة إلى السمور : دابة يتخذ من جلدها فراء

(٢) الشعر للعباس بن الأحنف . وقد ورد كذا في الديوان (طبعة الجوائب بالآستانه) . وفي الأغاني : ج ٧ : ٢٩٩ (دار الكتب) :
قد حدا بي إلى الجفاء وفائي ما أضرّ الوفاء بالانسان

(٣) نديم ومغن

(٤) بيت من خشب يبنى كالقبة (القاموس والأساس)

(٥) الروشن : مكان عال مشرف وكأنه « الشرفة »

(٦) السميرية : ضرب من السفن (اللسان) وفي (تكملة إصلاح = ما تغلط فيه العامة) للجواليقي ما يلي : «وهي السميرية لضرب من السفن بالياء ، وهي منسوبة إلى رجل يقال له سمير أظنه كان بالبصرة وهو أول من عملها فنسبت إليه ، ولا تقل سمارية فانه خطأ » ، (التكملة للجواليقي مطبوعات المجمع العلمي العربي وتحقيق التنوخي ص ١٩١)

(١) كلمة مبهمة : ولعلها في معنى : اقنا

(٢) في الأصل أدائم وهو تحريف . وفي القاموس أوائمه : أحاربه وهو المقصود هنا

(٣) في الأصل : ليلا وهو تحريف

(٤) في الأصل : فطن بنظري ، والأولى فطن لنظري يقال فطن للأمر (الأساس — والقاموس)

(٥) روى الثعالبي طرائف كثيرة عن اسحاق انتخبنا منها ألطفها وأبينها